الباب السادس

الإدارة الفلسطينية للحرب

الفصل الأول

إستراتيجية قوة الضعف وضعف القوة

هناك عدة معطيات لفهم إستراتيجية المقاومة في إدارتها لحرب غزة الأولى، وكيف تعاملت مع اختلال موازين القوى، ومحاولتها توظيف هذا الاختلال لصالحها. وكيف تعاملت أيضًا مع ضعف أو غياب الغطاء العربي والإسلامي لها. هذه الإستراتيجية تقوم على العناصر الأربعة الرئيسية التالية، وهي:

قوة الضعف

فالشعب الفلسطيني لا يمكن مقارنته بإسرائيل من حيث موازين القوى المادية ؛ إلا أن لديه عناصر أخرى من القوة لها وزنها في معادلات الصراع مع العدو. يأتي على رأس هذه العناصر صمود الشعب الفلسطيني، والبعد الديموجرافي (السكاني)، والرأي العام العربي والإسلامي والدولي.

ضعف القوة

إسرائيل لديها من عناصر القوة ما تنوء بحمله العصبة من الدول ؛ ولكن في المقابل، فإن لديها نقاط ضعف خطيرة تهدد بتقويض أركانها، ويمكن للشعب الفلسطيني أن يحقق

من خلالها مكاسب وانتصارات يعترف بها العدو نفسه قبل الصديق. يأتي على رأس نقاط الضعف هذه: العامل النفسي، وغياب العمق الإستراتيجي، ومحدودية وسوء الخيارات المتاحة لديها.

التكيُّف مع المتغيرات

وذلك يعني اللجوء إلى أساليب وتكتيكات لمواجهة إستراتيجيات العدو وتكتيكاته، بدون التفريط في الثوابت أو تغييب الأهداف الرئيسية. هذا التكيُّف يهدف إلى استمرار المقاومة، ومواجهة المتغيرات الإقليمية والدولية، وتحقيق مكاسب للقضية الفلسطينية.

الاستخدام الأمثل للقوى المتاحة

هذا العنصر يعني توظيف القدرات المتاحة لدى المقاومة. وكذلك توظيف الطبيعة الجغرافية والسكانية والعمرانية لقطاع غزة لتحقيق معادلة الردع، وحماية المقاومة، وإيقاع الخسائر بالعدو.

وهذان العنصران الأخيران في إستراتيجية المقاومة هما في واقع الأمر يندرجان تحت إستراتيجية قوة الضعف ؛ ولكن لأهميتهما بسطنا الحديث عنهما في عنصرين مستقلين.

أهمية إستراتيجية قوة الضعف وضعف القوة

هذه الإستراتيجية تقف أمامها إسرائيل عاجزة تمامًا، تحقق فشلًا يتلوه فشل، وتحرز عجزًا يتلوه عجز. يتحدث الكاتب الإسرائيلي كوبي نيف عن ذلك في لهجة تهكمية، وفي مرارة بالغة، فيقول: «يوجد لجميع قادتنا في الحقيقة طريقتان مجربتان، أي فشلتا في كل اختبار وامتحان في القضاء على الإرهاب مرة بعد أخرى:

• **الطريقة الأولى**: بجميع أنواع «الوسائل المحكمة»، أي جميع أنواع الحيل والخدع، التي تكلف المليارات ولا تساوي قرشًا، من الأسوار والجدران إلى جميع أنواع خطط التحصين الإلكترونية مع أسماء لعب حاسوب مثل «القبة الحديدية» أو «ستار الفولاذ»[1].

(١) القبة الحديدية أو ستار الفولاذ مشروع صهيوني لمواجهة صواريخ القسام والصواريخ قصيرة المدى كصواريخ الجراد والكاتيوشا، ولكنه لم يدخل الخدمة حتى الآن، وسنشير إليه فيما بعد في هذا الباب.

• **الطريقة الثانية**: المجربة أكثر، أي التي فشلت مرات أكثر، وهي: العمل العسكري المتدحرج الذي يأخذ في الازدياد من يوم إلى يوم، إلى أن يصبح «العملية الكبيرة» التي تقضي على الإرهاب، في كل سنة أو سنتين، بدفعة واحدة وإلى الأبد.

ما إن مرت سنة ونصف منذ العملية الكبيرة الناجحة السابقة للقضاء على الإرهاب، ألا وهي حرب لبنان الثانية، حتى أصبحنا متوجهين إلى العملية الكبيرة القادمة للقضاء على الإرهاب التي ستنجح بطبيعة الأمر كنجاح سابقاتها بالضبط: السور الواقي ٢، واحتلال غزة ٣، والضربة الساحقة ٤، والمهمات الفتاكة ٥ ؛ حتى إن الاسم لا يهم ولا يساعد. إن ما نسميه «إرهابًا» هو الطريقة الوحيدة الممكنة للشعب الفلسطيني لمحاربتنا»[1].

* * *

(١) كوبي نيف، إهلاك مكرر، معاريف، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٨.

الفصل الثاني

قوة الضعف

هذا هو العنصر الأساسي في إدارة الصراع مع العدو، وكان له دوره الحاسم في حرب غزة. وفي هذا الفصل سنذكر مكونات هذا العنصر وأهمية كل منها:

عناصر قوة الضعف: رؤية صهيونية

يعرّف الخبير الصهيوني صمويل بار قوة الضعف، فيقول: «إنها القوة النسبية التي يحتفظ بها الطرف الضعيف في مواجهة الطرف القوي. يمكن لهذه القوة الاعتماد على واحدة من ثلاث إستراتيجيات، أو على تركيبة منها:

- تحييد المكونات الرئيسية للمزايا التي يتمتع بها الخصم وهذا يتم: من خلال التوصل إلى دفاع لمواجهة التكتيكات التي تعتبر محورية بالنسبة إلى تلك المزايا، أو من خلال إيجاد ظروف تمنع العدو من استخدام تلك القدرات التي توفر تلك المزايا.
- عبر إيجاد وضع داخلي في المجتمع المستهدف يجعل الإذعان للضغوط أو التهديدات الردعية مستحيلًا عمليًّا.
- إصدار تهديدات معاكسة تُشْغل القوة المتفوقة، وتُضيّق الفسحة المتوفرة أمامها للمناورة»[1].

(١) صـموئيل بار، التجربة الإسرائيلية في ردع المنظمات الإرهابية، مؤسسة السياسة والإستراتيجيا، ورقة مقدمة=

عناصر قوة الضعف: وجهة نظر فلسطينية

يورد عوفر شيلح عناصر قوة الضعف وارتباطها بنظرية الأمن القومي الفلسطيني كما يراها المفكران الفلسطينيان محمد الفرا ووليد الخالدي، وهي:

- قدرة الشعب الفلسطيني على الصمود في مقدمة المزايا التي يتمتع بها الفلسطينيون وهي مصدر قوتهم.
- مركزية القضية الفلسطينية حيث تكرّس الاعتراف الدولي والعربي بصورة عامة وخاصة بهم.
- الديموجرافيا ـ سواء التجمع أو الشتات الفلسطيني ـ والذي يُصعّب على القوى المعادية للفلسطينيين أن تهزمهم بواسطة هجوم مركزي ومحدد.
- القوة المتمثلة بالضعف. فغالبية الأضرار التي تصيب الفلسطينيين هى سلاح قوي إزاء إسرائيل العنيدة، القوية، والتي تبالغ في ردود فعلها»[1].

وسنتناول هنا العناصر الثلاثة الأولى من عناصر قوة الضعف، وهي صمود الشعب الفلسطيني، وعامل الديموجرافيا، والرأي العام العربي والدولي. أما العنصر الأخير وهو ميزان الخسائر الذي يعمل لصالح الشعب الفلسطيني فسوف يتم تناوله في مواضع أخرى.

صمود الشعب الفلسطيني

هذا هو العامل الأساس: صمود المقاتل، وصمود الشعب، وصمود القيادة، بل وحتى صمود الأسير الفلسطيني في سجون الاحتلال، يقول عكيفا الدار: «عندما يسمع قادة حماس القادة الإسرائيليين ـ وهم يتفاخرون باستعادة الردع ـ يموتون من الضحك بالتأكيد. وهذا لا يعود فقط إلى الصواريخ التي تواصل ردع سكان عسقلان. فتهديد إلقاء المزيد من القنابل على غزة يردعهم مثلما تخيف عقوبة الموت استشهاديًّا وهو في طريقه لتنفيذ عملية. إن كان كل قتيل في سديروت يضيف مقعدًا لليمين، فكل طفل يُقتل في غزة هو مقعد جديد لحماس.

= إلى مؤتمر هرتزيليا يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٧، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، لبنان، سلسلة ترجمات الزيتونة، العدد: ٢٤، نيسان أبريل ٢٠٠٧، ص ١٨.

(١) عوفر شيلح، لصالح القضية الفلسطينية، يديعوت، ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٦.

الحصار المفروض على غزة والذي ألحق ضررًا فادحًا بمصادر رزق الناس هو تعزيز آخر لقوة حماس. على المحتل ألا يستغرب أن ظهر في نظرهم كعدو للشعب الفلسطيني، وليس لحماس»[1].

حتى الأسرى في سجون الاحتلال يقدمون صورة رائعة للصمود والثبات الفلسطيني، يقول عميت كوهين: «في هذه اللحظة، يبدو أن الضغوط لا تقدم الصفقة. فقد أعلن السجناء لمقربيهم خارج السجن بأن ليس لديهم أية نية للانثناء تحت الضغط. كل تصعيد إسرائيلي سيواجه بتصعيد من داخل السجن. يمكنهم أن يخوضوا إضرابًا عن الطعام، أو يتخذوا إجراءات أخرى. القيادة في السجن تشدد على أن لحماس مطالب واضحة بالنسبة لصفقة شاليط. القيادة في السجن تؤيد هذه المطالب وليس لها نية لتغيير موقفها»[2].

عوامل الصمود الفلسطيني

هذا الصمود هو نتاج عناصر متعددة، عناصر الدين والثقافة، والبناء والتكوين، والفهم الصحيح للعدو:

١ـ العامل الديني:

يقول صموئيل بار: «بروز أيديولوجية الشهادة ـ والقبول الاجتماعي واسع النطاق لها ـ يُطيح بالنظريات العسكرية القائمة على الردع»[3]. ويقول بن كاسبيت: «محاربة الإرهاب من هذا النوع هي شيء معقد. يوجد ها هنا طراز متميز من الإخوان المسلمين، يسيطر على القطاع مع تزويد بوسائل قتالية كبيرة، وبلا حدود. إذا ترددت إسرائيل أو خافت، فسيعلم العالم العربي كله، وسيعلم جميع الشهداء الذين يتكونون بإزائنا، أن إسرائيل قابلة للمس، وغير مصممة ولا مستعدة للمحاربة عن وجودها»[4].

٢ـ بناء الفرد:

وهنا ننقل شهادة هامة عن حركة المقاومة الإسلامية حماس لويليام سيجهارت، يقول

---

(١) عكيفا الدار، الحرب في غزة رسخت مكانة حماس بخلاف ما يدعيه قادة إسرائيل، هآرتس، ٢/ ٢/ ٢٠٠٩.
(٢) عميت كوهين، محافل فلسطينية: ديكل يضغط على السجناء لإقرار الصفقة، معاريف، ٢٤/ ٣/ ٢٠٠٩.
(٣) صموتيل بار، التجربة الإسرائيلية في ردع المنظمات الإرهابية، مصدر سابق، ص ١٤.
(٤) بن كاسبيت، وجهات نظر الساسة الإسرائيليين الكبار بالنظر إلى الحرب، معاريف، ٩/ ١/ ٢٠٠٩

فيها: «من ؟ أو ما هي حماس ؟، تلك المنظمة التي يريد إيهود باراك وزير الدفاع الإسرائيلي أن يُزيلها كما لو كانت فيروسًا. إن القادة السياسيين لحركة حماس لربما كانوا من أكثر حملة المؤهلات العلمية العالية في العالم. فالحركة تفتخر بوجود أكثر من خمسمائة من حملة درجة الدكتوراه في صفوفها. وغالب عناصر الحركة من الطبقة الوسطى من المهنيين سواء أكانوا أطباء أو أطباء أسنان وعلميين ومهندسين. وأغلب قيادات الحركة درسوا في جامعات ليس فيها أي نوع من الكراهية الأيدلوجية تجاه الغرب»[1].

٣ـ الفهم الصحيح لنفسية العدو:

يقول أوري هاينتر: «حماس فهموا نفسيتنا أكثر مما فهمنا نفسيتهم. نجحوا في الصمود في الحملة انطلاقا من الفرضية بأننا سنتعب وسنكون أول من سيتراجع، وهذا ما حصل. لقد فهموا أنه بعد انتهاء الحملة وتسريح الاحتياط، لن تسارع إسرائيل إلى العودة إلى حملة أخرى. قدروا بأن إسرائيل ستعود إلى سياسة الكف عن أي عمل التي ميزتها على مدى ثماني سنوات من نار الصواريخ على السكان المدنيين»[2].

من مظاهر الصمود الفلسطيني

هذا الصمود الفلسطيني يأتي على رأسه تمسك الشعب بخيار المقاومة والتفافه حولها، يقول جدعون ليفي: «لم نُضعف (حماس)، فهذه الحرب زادت من قوة روح الصمود والثبات المصمم لديها. يجب على الدولة التي ربت أجيالًا على روح ثبات القلة للكثرة، أن تعلم تقدير هذا الآن. لم يكن في هذه الحرب أي شك فيمن هو داود ؟ ومن هو جالوت ؟. السكان في غزة الذين تلقوا ضربة بالغة جدًّا، لن يصبحوا أكثر اعتدالًا بل العكس، سيوجَّه الشعور الوطني الآن لمواجهة من تسبب لهم في ذلك وهو دولة إسرائيل.

يجب أن نضيف إلى سلسلة إخفاقات الحرب بطبيعة الأمر إخفاق سياسة الحصار والقطيعة: فقد تبين منذ زمن أن هذا غير مجد. لقد قاطعهم العالم وفرضت إسرائيل عليهم حصارًا؛ ولكن سيطرت حماس وما زالت تسيطر»[3].

---

(١) ويليام سيجهارت، علينا أن نعدل الصورة المشوهة التي نحملها عن حماس، تايمز أون لاين، ٢٠٠٨/١٢/٣١

(٢) أوري هايتنر، آسف لا مفر فلننطلق إلى رصاص مصهور ٢، إسرائيل اليوم، ٣/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٣) جدعون ليفي، فشل وثكل، هاآرتس، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٩.

الاكتظاظ البشري وقوة الضعف

تمثل الديموجرافيا الفلسطينية عاملًا مهمًّا من عناصر قوة الضعف الفلسطيني، وسلاحًا أساسيًّا تقف أمامه إسرائيل بقضها وقضيضها عاجزة ضعيفة. فغزة التي تبلغ مساحتها ٣٦٤ كيلومترًا مربعًا هي «تجمع سكاني من الأكثر ازدحامًا في العالم، فهناك مليون ونصف من الناس يذوب داخلهم آلاف من مقاتلي حماس كذرات الرمال. من أجل الموازنة نقول إن بنت جبيل الشهيرة في حرب لبنان الثانية هي بلدة فيها ثلاثون ألفًا من السكان. في مخيم الشاطئ للاجئين في القطاع ـ وهو واحد من ثمانية مخيمات ـ يعيش مائة ألف إنسان. والمعنى واضح وهو صعوبة كبيرة في القتال البري والتطهير»[١].

الوحل الغزي

يقول عاموس عوز: «هجوم بري على غزة من شأنه أن يؤدي إلى التورط وإلى الغرق في الوحل الغزي، الذي لا يبدو حياله الوحل اللبناني أكثر من بقعة ضحلة.

مليون ونصف المليون إنسان يعيشون في غزة بكثافة في الفقر، وفي المعاناة، وفي الحصار. هؤلاء الناس لن يصبحوا محبين لإسرائيل، ولن يتلقوا منا حتى كيّا للوعي»[٢].

ويقول يغئال سيرينا: «غزة هي كارثة على عملية سلاح المشاة. وهي شرك لمن يعيش فيه، ولمن يدخلها. هذه هي غزة التي هربنا منها كما في لبنان بعد أربعين سنة من السيطرة. لا باتفاق سياسي، بل بانسحاب عسكري على عجل من غير أن ننظر إلى الخلف»[٣].

لماذا لم تقْدم إسرائيل على احتلال غزة ؟

مثّل الخوف من الخسائر البشرية هاجسًا قويًّا لإسرائيل منعها من إعادة احتلال القطاع، يقول عوفر شيلح: «أشكنازي يعرف أنه في تفجير مبنى واحد في صور، بعد خمسة أشهر من إعلان وقف النار في حرب لبنان الأولى١٩٨٢، فقد الجيش الإسرائيلي وقوات الأمن أكثر مما فقدا في أي معركة منذ حرب يوم الغفران»[٤].

---

(١) عاموس جلبوع، حرب من نوع آخر، معاريف، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٢) عاموس عوز، الحرب في الجنوب وقف نار الآن، يديعوت، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٣) يغئال سيرينا، مسوكة من رصاص قديم، يديعوت،٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٤) عوفر شيلح، حملة النار على غزة، معاريف، ١٣/ ١/ ٢٠٠٩.

الاستفادة من الرأي العام العربي والدولي

الرأي العام العربي والدولي يمثل قوة دعم كبيرة للشعب الفلسطيني، وعامل ردع للجموح الإسرائيلي، يقول ناحوم برنياع: «إسرائيل علقت غير مرة في الماضي في فترة من التنديد في الساحة الدولية. في كل مرة خرجنا بسلام، بفضل الفيتو الأمريكي، وبفضل حقيقة أن ليس كل العالم ضدنا.

الورطة هذه المرة أصعب قليلًا، ولا سيما بسبب التأثير الهائل لوسائل الإعلام الجديدة ـ من قنوات التليفزيون العربية ومواقع الإنترنت ـ على الرأي العام، وبسبب الحضور المكثف لمنظمات حقوق الإنسان وقدرتها على تحريك سياسات قضائية، وحملات مقاطعة، وقرارات من الحكومات في الغرب. الفلسطينيون لن يتنازلوا عن إدانة إسرائيل في الساحة الدولية: هذا سلاحهم الأكثر نجاعة»[1].

ويعترف يوسي بيلين بخطورة هذا السلاح، فيقول: «قبل أن يقرر رئيس الوزراء المغادر إيهود أولمرت شن عملية في غزة، وقبل أن يقرر خليفته بنيامين نتنياهو شن عملية عسكرية مشابهة لضمان بقاء الردع الإسرائيلي، يجدر بهم أن يدرسوا بجدية الآثار التي ترتبت على عملية الرصاص المصهور.

ثلاثة أسابيع من البث التليفزيوني التي ظهر فيها الأطفال والنساء وهم يُقتلون يوميًّا على يد الجيش الإسرائيلي أخرجت مردة كثيرة من القمقم ليس من الممكن إعادتها إلى هناك، على الأقل ليس في الوقت الحالي.

الأنظمة العربية التي أرادت تغيير الاكتفاء باتهام إسرائيل بالرد بصورة غير متناسبة وفي نفس الوقت مواصلة العلاقات معها، لا تستطيع ببساطة أن تسمح لنفسها بذلك الآن.

القيادة العربية لم تُنتخب بصورة ديمقراطية ؛ إلا أن هذا لم يقلل من حاجتها للإصغاء للشارع، وهذا الشارع شاهد قناة الجزيرة ففقد صوابه، وعرضه للشعور بأن إسرائيل عادت لتكون العدو الذي لا يمكن التسليم بوجوده»[2].

---

(١) ناحوم برنياع، دروس رصاص مصهور، يديعوت، ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٩.

(٢) يوسي بيلين، أنا آسف: القوة لا تكفي، إسرائيل اليوم، ٣/ ٣/ ٢٠٠٩.

أهمية تفاعل الشارع العربي

«ضغط الشارع في مصر والأردن يعطي إشاراته: لأول مرة منذ بداية الحملة نشر أمس مبارك والملك عبد الله بيانات تنديد حادة اللهجة ضد إسرائيل. مسئول كبير في القدس حذر من أنه إذا استمرت العملية فإن من شأن الأردنيين أن يخفضوا مستوى العلاقات. وحذرت مصادر في إسرائيل من أنه إذا أغلق الأردن سفارته، فإن مصر ستسير في أعقابه»[1].

إسرائيل تحطم نفسها

«نوع الضغط الذي مارسه الجيش الإسرائيلي على حماس ربما يضغط على حماس، ولكنه يحطم إسرائيل، ويحطم صورتها. يحطمها في شاشات التليفزيون في العالم، في أروقة الأسرة الدولية، وفي المكان الذي يهمها أكثر من أي شيء آخر: أمريكا أوباما»[2].

أهمية الثقل الإسلامي بأوروبا

تحرك المسلمين بأوروبا يمثل عامل دعم للقضية الفلسطينية، وعاملًا مؤثرًا إلى حد ما في القرار السياسي الأوروبي، يقول شالوم يروشالمي: «في الأحاديث مع الدبلوماسيين الأجانب فإنك تسمع التخوف أيضًا على مصيرهم. الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي كان أول من عبر عن هذا الخوف في الحديث الشهير الذي أجراه مع رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو. والحجة هي أن الجمود السياسي والوضع في غزة واستمرار الاستيطان سيؤدي إلى اضطرابات للمسلمين في أوروبا.

النرويج، التي تبدي عطفًا على حماس ولا تخشى من الاحتفال بيوم مولد الكاتب كانوت همسون الذي أيد الحزب النازي، تأخذ بالحسبان أيضًا تظاهرات المسلمين في الدولة»[3].

---

(١) سمدار بيري، لأول مرة في الجملة تنديد من مبارك وعبد الله، يديعوت، ٥/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) آري شفيت، عمل سخيف: الحملة التي خرجت عن طورها، هآرتس، ١٦/ ١/ ٢٠٠٩.

(٣) شالوم يروشالمي، باتوا يتحدثون صراحة عن إسرائيل كدولة ظالمة وخارقة للقانون، معاريف، ٥/ ١٠/ ٢٠٠٩.

الفصل الثالث

ضعف القوة

إسرائيل قوية عسكريًا واقتصاديًا وتكنولوجيًا واستخباراتيًا، ومدعومة أيضًا دوليًا؛ إلا أنها بالرغم من ذلك، لديها نقاط ضعف خطيرة، هي:

١ـ الضعف النفسي والمعنوي سواء على مستوى القيادة أو الشعب.
٢ـ ضعف العمق الإستراتيجي.
٣ ـ محدودية الخيارات والبدائل المتاحة سياسيًا وعسكريًا أمام إسرائيل وسوء نتائجها.
٤ ـ عدم تحمل المجتمع الإسرائيلي للخسائر البشرية.
٥ ـ وجود نقاط الضعف لدى الجيش الإسرائيلي نفسه.

الضعف النفسي والمعنوي

لعل أهم نقاط الضعف لدى العدو هو العامل النفسي، والخوف من المواجهة المباشرة مع المقاومة، وصدق الله إذ يقول: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ [الحشر:١٤]. فلم تجرؤ إسرائيل على دخول المرحلة الثالثة من حرب غزة وهي احتلال المدن والمخيمات الفلسطينية. ذلك لخوفها من النتائج المترتبة عليها، تقول صحيفة هاآرتس: «في الجيش الإسرائيلي يُعشش التخوف كل الوقت من خطأ يؤدي إلى قتل جماعي لمواطنين فلسطينيين، أو هجوم مفاجئ لحماس يؤثر على الرأي العام في إسرائيل»[1].

(١) عاموس هرئيل وآفي يسسخروف، شبه حسم، هاآرتس، ١٦/ ١/ ٢٠٠٩.

هذا الخوف يدفع العدو إلى التهويل من قدرات المقاومة، حتى على مستوى القادة العسكريين، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال:١٢]، ونكتفي هنا بالمقالين التاليين:

مسيرة التخويفات

تحت هذا العنوان يقول عاموس جلبوع: «منذ استولت حماس على الحكم في قطاع غزة، كان المفهوم السائد في إسرائيل أن عملية عسكرية واسعة ـ ستتضمن إدخال قوات برية كبيرة ـ هي الأسوأ، وأن بانتظارنا كارثة. هذه الفكرة ترسخت لدرجة أنها أصبحت إيمانًا دينيًّا ملأت مزاميرها وسائل إعلامنا. قالوا لنا إن لدى حماس قدرة عسكرية نوعية. إن مقاتليها الذين تدربوا في إيران ينتظرون الجيش الإسرائيلي بعيون مليئة بالقتل؛ وإن لها منظومات دفاعية متينة، وإن ستالينجراد[1] هي لعبة أطفال بالقياس إليهم؛ وإن الجيش سيتكبد خسائر فادحة بمئات القتلى وآلاف الجرحى؛ وإن القتال من اللحظة التي نتجاوز فيها الجدار سيكون رهيبًا؛ وإن الدبابات ستحترق؛ وإن الجبهة الداخلية ستصبح جحيمًا.

وفي هذا السياق عادت لتصعد مرة أخرى الكلمة الهامسة: وحل. الوحل اللبناني ـ هكذا قالت القصيدة الدينية ـ ستظهر بقعة بالقياس إلى غوص الوحل الغزي. الفلسطينيون في يهودا والسامرة[2] سيثورون، ستندلع انتفاضة ثالثة وحشية[3]، ورئيس السلطة أبو مازن سيسقط.

بشكل عام، قالوا: لا يمكن الانتصار في غزة. في عصر ما بعد الحداثة عندنا لا يمكن للجيش الإسرائيلي أن ينتصر. فلسفة كاملة نشأت حول قصر أيدينا على الانتصار.

الأسباب العميقة لهذا المفهوم تحتاج إلى بحث اجتماعي، وسياسي، ونفسي على نحو خاص. لقد كان لهذا المفهوم بضعة آثار سلبية:

● **أولًا**: دفعت دولة إسرائيل إلى ترك أمن سكان الجنوب لمصيره. قالت الدولة لمواطني

---

(١) مدينة روسية ضربت مثالًا في الصمود، إذ شهدت معارك واسعة وصمودًا كبيرًا في وجه النازي في الحرب العالمية الثانية، وكانت سببًا في اندحار الغزو الألماني للاتحاد السوفييتي.

(٢) يطلق الاحتلال على الضفة الغربية مصطلح يهودا والسامرة.

(٣) الذي منع هذا السيناريو هو السلطة الفلسطينية ذاتها التي سلطت أجهزتها الأمنية لاعتقال المقاومين ومنع الاحتجاجات الشعبية، وهو ما ذكرته عميرة هاس في مقال لها تحت عنوان «السلطة تمنع المتظاهرين في الضفة من الصدام مع الجيش الإسرائيلي»، هاآرتس، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٨.

الجنوب : عليكم أن تضحوا بقليل من الضحايا بين الحين والآخر، وذلك لأننا إذا دخلنا القطاع فسيُقتل الكثير من الجنود.

• **ثانيًا**: على المستوى العملي: فقد الجيش الإسرائيلي الردع، وعُرض كجيش ضعيف يخاف التصدي وجهًا لوجه مع مقاتلي حماس الجسورين»[1].

الأسطورة الرابعة

يقول وزير الدفاع الصهيوني الأسبق موشيه آرنس تحت هذا العنوان: «يمكن أن نحصي الأساطير والخرافات التي ترسخت هنا خلال العامين الأخيرين على يد قادة إسرائيل الذين قالوا إن إرسال القوات البرية إلى قطاع غزة من أجل إيقاف إطلاق الصواريخ سيكون خطوة متسرعة. هذه الخرافات رمت إلى تبرير سياسة التقاعس التي اتبعها وزير الدفاع، ووقف إطلاق النار الكارثي مع حماس الذي أتاح لها التزود بالصواريخ بعيدة المدى:

• **الخرافة الأولى**: التي تبددت في عملية الرصاص المصهور ادعت أن إدخال القوات البرية سينتهي بمقتل مئات الجنود. عندما يتردد هذا الادعاء على لسان قادة ذوي تجربة عسكرية يصبح كل خيار أفضل من الزج بالقوات البرية في أتون المعركة، في الوقت الذي فيه قوة الجيش الإسرائيلي تفوق قوة آلاف المقاتلين في حماس.

• **الخرافة الثانية**: التي تبددت: هي أن العملية البرية لن تنجح في وضع حد لإطلاق الصواريخ. السؤال هو لماذا ينسبون لحماس مثل هذه القدرات الخارقة، التي تتيح لها إطلاق الصواريخ أيضا من المناطق التي يتواجد فيها الجيش الإسرائيلي ؟

• **الخرافة الثالثة**: تقول إننا لن نتمكن من مغادرة القطاع من لحظة دخوله، وسنغرق هناك في وحله للأبد.

وها هم قادتنا يبتدعون لنا خرافة رابعة الآن: العملية البرية حققت كل أهدافها. حماس تواصل إطلاق الصواريخ، وقادتنا يدعون أن العملية قد حققت كل أهدافها. وزيرة الخارجية تقول، إنه إن لم تنصع حماس لوقف إطلاق النار أحادي الجانب بعد الانسحاب، فإن قواتنا ستعود. وكأنه من الممكن الشروع بعملية كهذه في كل يوم»[2].

هذا الادعاء بتبدد الخرافات الثلاث كان مرتبطًا بسكرة القوة ونشوة النصر المزعوم، إذ يعود موشيه أرنس نفسه بعد ذلك بحوالي شهرين فيتحدث بمرارة عن فشل حملة الرصاص

(١) عاموس جلبوع، مسيرة التخويفات، معاريف، ١٩/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) موشيه أرنس، الأسطورة الرابعة، هآرتس، ١٩/ ١/ ٢٠٠٩.

المصهور، فيقول: «ما الذي تمخضت عنه هذه العملية ؟ هي لم تضع حدًّا لإطلاق صواريخ القسام، ولم تؤد إلى إطلاق سراح جلعاد شاليط. في المقابل، دفعت إسرائيل ثمنًا باهظًا عندما أثارت ضدها الرأي العام في العالم بسبب الدمار الكبير الذي خلفته في قطاع غزة، والضائقة السكانية المدنية هناك. هذه الأمور ستلاحقها لزمن طويل وستصعب عليها بالتأكيد الرد على استفزازات حماس القادمة.

بالمقارنة مع الثمن، الإنجازات تبدو معدومة. العملية توقفت بسبب الذريعة الواهية بأنه لم يعد هناك ما يمكن فعله. وانسحب الجيش الإسرائيلي من دون أن ينجز شيئًا تقريبًا»[1].

ضعف العمق الإستراتيجي

تفتقر إسرائيل إلى العمق الإستراتيجي. وهذه نقطة ضعف خطيرة جعلتها تبني نظريتها الأمنية على نقل الحرب إلى خارج أراضيها ؛ ولكن الصواريخ والقذائف الفلسطينية قلبت هذه النظرية الأمنية رأسًا على عقب، يقول يوئيل ماركوس: «صواريخ القسام الأولى التي أُطلقت على إسرائيل قبل ثماني سنوات اُستقبلت بالاستهزاء. فقد كانت بدائية، وانفجرت في الأغلب في مناطق مفتوحة. أخطأنا في حينه بأن لم نفكر بأن هذا هو الصغير الذي سيكبر. وهذه الأيام فقط اكتشفنا بأنه تحت غطاء ضبط النفس والاستخفاف من جانبنا أقاموا إمبراطورية تحت أرضية لنحو عشرة آلاف صاروخ من كل الأنواع. ولو لم يخرج جهاز الأمن الآن إلى حملة شاملة، لاستيقظنا في يوم صاف على الصافرات في تل أبيب»[2].

يعترف يوفال ديسكن رئيس جهاز الشاباك الإسرائيلي بخطورة سلاح صواريخ المقاومة، فيقول الكاتب: «الذراع العسكري لحماس لديه القدرة على الوصول إلى كريات جات، وأشدود، ومشارف بئر السبع. كما أن منشآت حيوية مثل مركز البحوث النووية في ناحل شورك وقاعدة سلاح الجو في حتسور توجد ضمن المدى.

جملة الأهداف المدنية والإستراتيجية المستهدفة في إسرائيل تجعل هذه الصواريخ ما يسمى «سلاح محطم للتوازن»، بمعنى: سلاح إذا لم يُشل في أقرب وقت ممكن من شأنه أن يلحق أضرارًا جسيمة في العمق الإسرائيلي.

---

(١) موشيه أرنس، ثمن مرتفع مقابل إنجاز ضئيل، هآرتس، ٢٣/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٢) يوئيل ماركوس، يا حلو: الكيلومترات تقلصت، هآرتس، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

في البلدات التي توجد في مدى الصواريخ، توجد صافرات إنذار. للسكان في منطقة أشدود وكريات جات توجد فترة زمنية تتراوح بين نصف دقيقة و٤٥ ثانية للوصول إلى مجال محصن»[١].

محدودية وسوء البدائل المتاحة أمام إسرائيل

الخيارات المتاحة أمام إسرائيل لمواجهة المقاومة كلها خيارات سيئة، وكُلفتها عالية إستراتيجيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا. فصاروخ القسام البدائي هذا، لا تمتلك إسرائيل وسيلة ناجعة للقضاء عليه، يقول أليكس فيشمان: «يدور الحديث عن مشروع مركزي واحد يُسمى «القبة الحديدية»، الذي يعمل على مبدأ صاروخ ضد صاروخ. إصابة رأس برأس. الاستثمار في هذا المشروع باهظ جدًّا. كل صاروخ يُسقط صاروخا سيكلف حوالي ٣٠ ألف دولار»[٢].

ويعلق رؤبين بدهتسور على هذا المشروع، فيقول: «انتصار الفلسطينيين سيكون من خلال مواصلة إنتاج القسام. الأمر الذي سيستنزف إسرائيل، ويُجبرها على إنتاج صواريخ مكلفة يُشك في أنها ستستخدم أصلًا»[٣].

وعلى الرغم من هذه التكلفة المادية العالية، فمشاريع إسرائيل لمواجهة الصواريخ الفلسطينية كلها محدودة الجدوى، بل وتكاد تكون فاشلة، يقول عمير ربابورت: «المشروع المسمى القبة الفولاذية انطلق في طريقه قبل عدة أشهر. هناك وسائل اعتراضية أخرى للصواريخ قصيرة المدى مثل «نيوتيلوس» الذي يستخدم أشعة الليزر، والذي كلف مئات ملايين الشواكل كمشروع مشترك بين إسرائيل وأمريكا. ولكن رغم الدعاية:

- تكنولوجيا الليزر ليست ناضجة، ولن توفر ردًّا على القسام في الأجواء الماطرة أو الغائمة.
- المشروع ليس ناجعًا، ومكلف جدًّا، ولا جدوى من صرف عشرات آلاف الدولارات على كل صاروخ من أجل التصدي لصاروخ بدائي يكلف بضع مئات من الشواكل.

---

(١) أليكس فيشمان، يقتربون من تل أبيب، يديعوت، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٢) أليكس فيشمان، المال ليس المشكلة، يديعوت، ١٠/ ١٠/ ٢٠٠٧.
(٣) رؤبين بدهتسور، صواريخ مقابل أنابيب فولاذية، هاآرتس، ١٤/ ٥/ ٢٠٠٧.

• وإنتاج الصواريخ البدائية أسهل بكثير وأسرع من إنتاج الصواريخ المضادة المكلفة والمعقدة.

• وإذا حصنوا منطقة، فسيطلق الفلسطينيون صواريخهم على مناطق أخرى.

• من يضع كل آماله على الحل التكنولوجي ملزم بالتسليم بأنه غير قابل للتطبيق مع مرور الوقت»[١].

هذا المشروع هو تكرار لمسيرة الفشل والعجز، يقول رؤبين بدهتسور: «في شهر «شباط» فبراير ١٩٩٦ إبّان سقوط الكاتيوشا على كريات شمونة، زف شمعون بيريز ـ رئيس الوزراء في حينه ـ خبرًا مفاده أننا «سنمتلك عما قريب سلاحًا لاعتراض الكاتيوشا». مرت ١١ سنة منذئذ، وأطلق حزب الله خلالها أربعة آلاف صاروخ كاتيوشا نحو العمق الداخلي الإسرائيلي، ولم يتم اعتراض أي واحد منها بالطبع»[٢].

القصف الجوي لا يحسم المعركة

القصف الجوي لا يستطيع أن يحقق نتائج ملموسة على الأرض. فلقد «تبين في حرب لبنان الثانية، أنه ليس بوسع قوة جوية أن تهزم ميليشيات مسلحة تفرض أمرتها على السكان المدنيين أو تتمتع بتأييدهم»[٣]. و«إذا ما انتهى الأمر هكذا، فإن «حماس» ستدعي ـ بقدر ما من الصدق ـ بأن الجيش الإسرائيلي خاف من المواجهة، والصهاينة الجبناء ألقوا القنابل من الجو، وأعلنوا عن النصر وهربوا. المشكلة الحقيقية لغزة لن تُحل»[٤].

مخاطر الغزو البري

لم يكن أمام إسرائيل سوى خيار الغزو البري والغرق في المستنقع الغزي. ولكنّ هذا الدخول معلوم لدى الطرفين نتائجه مسبقًا، يقول يوئيل ماركوس: «الخروج الفجائي من

(١) عمير ربابورت، ليس هناك حل سحري، معاريف، ١٨/ ٥/ ٢٠٠٧.
(٢) رؤبين بدهتسور، صواريخ مقابل أنابيب فولاذية، هآرتس، ١٤/ ٥/ ٢٠٠٧.
(٣) أسرة التحرير، حانت ساعة الدبلوماسية، هآرتس، ١/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) بن كاسبيت، يكافحون في سبيل صورة نصر، معاريف، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٨.

لبنان بأمر من باراك في مايو «آيار» ٢٠٠٠ علّم المنظمات أن البقاء الطويل في منطقة معادية هو نقطة ضعف اليهود»[١].

كما أنه لن يأتي بأي إنجاز إستراتيجي، يؤكد ذلك آفي رتسون، فيقول: «الدخول البري. لا حاجة إليه إذا استثنينا استعمال وحدات المشاة الخاصة المدربة. فلن يأتي بأي إنجاز إستراتيجي»[٢].

ولذلك أقدمت إسرائيل على الهجوم البري من غير ثقة في نتائجه، يقول عوفر شيلح: «دون فرح وبانعدام ثقة متبادلة بين أعضائها، تتدحرج القيادة الإسرائيلية إلى ما يبدو إلى خطوة برية محتمة. وأولئك الذين يُفترض بهم أن يقودوها ـ وعلى رأسهم وزير الدفاع إيهود باراك ـ يبدون كمن يؤمنون أقل من كل الآخرين بالنتائج الملموسة التي ستحققها»[٣].

إسقاط حماس ليس هو الحل

يقول روبيك روزنتال: «يوجد عيب أساسي في طلب أو إعلان القضاء على حماس. فإسرائيل تستطيع القضاء عليها فقط إذا سيطرت على القطاع زمنًا طويلًا وإلى الأبد. إن محاولة تبديل السلطة بغير السيطرة بالفعل على الأرض حدثت في لبنان في سنة ١٩٨٢. وعدوا هذا آنذاك «نظامًا جديدًا». انتهى ذلك إلى قتل الحاكم الذي تقبله إسرائيل، وإلى مجزرة[٤]، وإلى نمو قوة إسلامية خاضعة لإيران[٥]، وإلى إطلاق صواريخ كاتيوشا على إسرائيل مرة أخرى.

تستطيع إسرائيل تبديل حماس إذا غلّبت على قطاع غزة نظامًا عسكريًّا فقط، أن يجول جنود إسرائيليون في شوارع غزة، وأن يجلس في مباني الإدارة مراقبون إسرائيليون، وأن يقيم الشاباك خلايا سيطرة، وأن تتم مراقبة وسائل الإعلام، وأن يُقام على رأس السلطة دُمى إسرائيلية. ليس «برنامج الأخ الأكبر» لحكم كهذا برنامجًا واقعيًّا؛ بل هو واقع فظيع»[٦].

---

(١) يوئيل ماركوس، ينبغي أن نعلم كيف ننهي، هآرتس، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٢) آفي رتسون، أخطار العملية البرية، معاريف، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٣) عوفر شيلح، يتدحرجون نحو غزة، معاريف، ١/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) مجزرة صابرا وشاتيلا.
(٥) حزب الله اللبناني.
(٦) روبيك روزنتال، درس في حدود القوة، معاريف، ١/ ١/ ٢٠٠٩.

عدم تحمل المجتمع الإسرائيلي للخسائر البشرية

تمثل الخسائر البشرية نقطة ضعف خطيرة في المجتمع الإسرائيلي، وعاملًا محوريًّا في أي صراع يخوضه، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾[البقرة:٩٦]، يقول بن كاسبيت: «ليست غزة كلبنان. من يُعلن أنه لا يمكن وقف إطلاق صواريخ القسام لا يعلم ما يقول. يمكن وقف الإطلاق. والسؤال هو هل إسرائيل مستعدة لدفع الثمن ؟. أجل، سيُقتل جنود. فمنذ ستين سنة، يُقتل ها هنا جنود في الدفاع عن الدولة. يثور انطباع أن المجتمع الإسرائيلي في السنين الأخيرة يُفضل أن تصاب الدولة بشرط ألا يصاب الجنود»[١].

«في حرب الأيام الستة ـ الأكثر نجاحًا عسكريًّا بين حروب إسرائيل ـ قُتل أكثر من مائة جندي في اليوم في المتوسط. بمقاييس اليوم، ما كان هذا ليمر، بعد نصف ساعة كنا سنوقف الحرب. منذئذ، شيئان تغيرا فقط: الأعداء باتوا أكثر تصميمًا ؛ ونحن أقل بكثير»[٢].

من أجل ذلك، سعت إسرائيل إلى منع وسائل الإعلام من الدخول إلى ميدان المعركة، يقول أمير أورن: «عزل شبه مطلق لأرض المعركة حتى لا تخرج منها المعلومات مباشرة، والقادرة على تغيير حجم التأييد الداخلي والخارجي للعملية. من هنا كان سلاح الجو وسلاح الأجواء هما الأكثر نجاعة في هذه المعركة»[٣].

توظيف المقاومة لهذا العنصر

لقد وضعت المقاومة خطتها على أساس محاولة استنزاف العدو، واستدراجه إلى معركة برية، ومحاولة أسر وقتل جنود، واستغلال هذه الورقة إعلاميًّا. أطلقت يديعوت على هذه الخطة «سيناريو الرعب»، فتقول: «حملة رصاص مصهور كان من شأنها أن تنتهي على نحو مغاير تمامًا لو أنه تحقق سيناريو الرعب الذي خشي منه الجميع: اختطاف جندي. منذ بداية القتال، الجيش الإسرائيلي أمر القوات بمنع الاختطاف بكل ثمن بما في ذلك إطلاق النار على سيارة يوجد فيها الجندي المخطوف نحوه ومن يحتجزونه»[٤].

---

(١) بن كاسبيت، نلعب من سبت لسبت، معاريف، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) بن كاسبيت، لا توجد حرب مبررة أكثر من حربنا ضد حماس، معاريف، ٤/ ١/ ٢٠٠٩.

(٣) أمير أرون، كم هو عدد العرب الذين يعادلون إسرائيليًّا واحدًا؟ هآرتس، ١٨/ ١/ ٢٠٠٩.

(٤) يديعوت، قائد كتيبة في جولاني يوجه جنوده في غزة إذا اُختطف جندي فليفجر القنبلة اليدوية به وبخاطفيه، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٩.

استغلال نقاط الضعف لدى الجيش الإسرائيلي

الجيش الإسرائيلي هو من أقوى الجيوش في العالم ؛ ولكن لديه نقاط ضعف خطيرة نجحت المقاومة في استغلالها والاستفادة منها، يقول أليكس فيشمان: «حماس وحزب الله يتابعان بهوس تحركات الجيش الإسرائيلي ويبحثان طوال الوقت عن نقاط الضعف. وهما يعرفان بالضبط كيف سيدفع قائد السرية القوة إلى المعركة. وهذا ما يحتاجه كل قائد ليأخذه بالحسبان: العدو يعرف أنماط عمله مثل كف يده»[1].

ويقول أمير أورن: «المنظمات الإسلامية المتزمتة توجه أفضل فكرها الإبداعي نحو القطاعات الأكثر إهمالًا في الجيش الإسرائيلي نسبيًّا والتي تشكل ثغرات. المقاتلون يعرفون ماذا ينتظرهم، وكم هو كبير حجم الخطر في أن يُحاصروا من العدو، وأي منظومة معدة لإنقاذهم، ولكن دون ضمان النجاح. وهم يفهمون بأنه إلى جانب الموت والإصابة، فإنهم يخاطرون بالأسر. الأسر بالنسبة لهؤلاء هو صدمة لم يُعدوا لها أبدًا»[2].

* * *

(١) أليكس فيشمان، متلازمة لبنان، ١٧/ ٤/ ٢٠٠٨.

(٢) أمير أورن، يتعرضون لضربات على الرأس، هآرتس، ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٩.

الفصل الرابع

التكيف مع المتغيرات

هذا العنصر هو سمة ثابتة في إستراتيجية المقاومة، يعترف بذلك العميد يوآف زاكس رئيس قسم في شعبة تطوير الوسائل التكنولوجية في الجيش الإسرائيلي، فيقول: «الإرهاب ينزع شكلًا ويرتدي آخر. حين تكون طريقة عمل معينة تُجبي ثمنًا عاليًا جدًّا أو تنجح بقدر أقل، ينتقل الإرهاب إلى شكل آخر. منظمات الإرهاب تبحث دومًا عن طريقة العمل التي تحتاج إلى حد أدنى من المخاطرة والجهد، وتضمن الحد الأقصى من النجاح. وهذا بالمناسبة لا يُقاس فقط في عدد الإصابات، بل وأيضًا في عمق الصدى الإعلامي، مدى الحرج السياسي، المس بالمعنويات العامة وغيرها.

إسرائيل هي قوة عظمى عالمية في مجال تطوير الصواريخ بشكل عام، وصواريخ إسقاط الصواريخ بشكل خاص. يوجد احتمال طيب في أن تفي وزارة الدفاع إلى هذا الحد أو ذاك بالمواعيد الزمنية وبالميزانية التي وضعتها لنفسها في مشروع القبة الحديدية. ولكن في اليوم التالي لاستكمال المشروع لن نكون أقرب من إزالة تهديد القسام، وذلك لثلاثة أسباب:

- **أولًا**: مهما كان انتشار مطلقي القسام، سيكون دومًا ممكنًا العثور على «ثقوب» في التغطية ومواصلة إقلاق السكان المدنيين.

- **ثانيًا**: الاستخدام الناجح لوسائل إطلاق الصواريخ هذه بجوار السكان المدنيين سيشكل إزعاجًا شديدًا لهؤلاء السكان.

• **ثالثًا**: كلما كانت منظومة التحصين أكثر نجاحًا، سيحتدم التهديد أو يهاجر إلى مواقع أخرى لا تنتشر فيها منظومة إسقاط الصواريخ.

وعليه، فإن نجاح المشروع لن يُحدث تخفيفًا حقيقيًّا. وبالعكس، فإن الزمن الذي يمر والمصادر التي تُستثمر في قنوات أكثر نجاعة يُبعدان الحل ولا يُقربانه»[1].

من مظاهر التكيف مع المتغيرات

هذا العنصر الثالث من عناصر إستراتيجية المقاومة برع فيه الشعب الفلسطيني، وأبدعت عقوله المباركة سياسات وتكتيكات وأنماط جديدة من المقاومة، لمواجهة المتغيرات المختلفة، نذكر هنا بعضًا منها:

• عدم اللعب وفق السيناريو الإسرائيلي أو التصور الإسرائيلي لعمل المقاومة: وهذا يعني تغير الأسلوب بحيث لا تقع المقاومة في أسر النمطية وروتينية الفكر والأسلوب. فلقد تعود الاحتلال من اجتياحاته السابقة للقطاع على نمط المواجهة المباشرة والتصدي المكشوف من المقاومة لقواته. هذا ما كان يظنه العدو سيحدث عند إعداده لحرب غزة؛ ولكنه فوجئ بنمط آخر أطلقت عليه وسائل إعلامه بالمقاتلين الأشباح.

• اللجوء إلى الأنفاق كوسيلة للتهريب والقتال، لمواجهة الحصار، وتعويض عدم امتلاك وسائل دفاع جوي تحمي المقاومة من طائرات الاحتلال، وتحميها أيضًا من وسائل تجسسه واستخباراته.

• اللجوء إلى الصواريخ بديلًا عن العمليات الاستشهادية التي توجد دونها عوائق كثيرة، وباعتبار الصواريخ وسيلة فعالة لإضعاف معنويات العدو.

ونظرًا لأننا عرضنا وسنعرض في مواضع أخرى لسلاح الأنفاق، وسلاح الصواريخ كوسائل فعالة في معادلة الصراع مع العدو وكأدوات هامة في إستراتيجية وتكتيكات المقاومة، فإننا سنتناول هنا عدم اللعب وفق السيناريو الإسرائيلي.

عدم اللعب وفق السيناريو الإسرائيلي

كان الجيش الإسرائيلي يظن أن «حماس» ستدفع بمقاتليها إلى الخروج إلى الأرض

---

(١) يوآف زاكس، ثقوب في القبة الحديدية، يديعوت، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٨.

لملاقاة قواته في المرحلة الثانية من الحرب. ولقد تساءل البعض أين قوات المقاومة من هذه القوات الغازية ؟ وأين تهديدهم ووعيدهم بتحويل غزة إلى محرقة للقوات الغازية؟ ولماذا اختفت قيادات المقاومة وابتعدت عن الأنظار ؟ وأين ؟ وأين ؟ وأين ؟

ولكن في واقع الأمر، كان ذكاء من حماس ألا تنجر إلى أسلوب قتال يمليه عليها العدو ؛ ولو فعلت لكان ذلك نوعًا من الانتحار الجماعي. وإنما، فرضت على العدو الأسلوب الذي تريده هي، مما سبب له إحباطًا كبيرًا. يؤكد ذلك المعلق أمير أورن فيقول: «الإحباط نابع من رفض حماس اللعب وفقًا للسيناريو التي أعدته إسرائيل. قرار حماس بتجنب التصادم مع الجيش الإسرائيلي كأحد الخيارات التي حُللت ودُرست اُعتبر من ضمن الاحتمالات المتدنية في السيناريو الذي أعده الجيش الإسرائيلي، حيث اعتقدوا أن من الممكن الوثوق بأن العرب سيتصرفون وفقًا للمنطق الذي يُنسب لهم في إسرائيل. ولذلك لا يعرف أحد كيف ستتطور العملية العسكرية إن جددتها إسرائيل»[1].

* * *

(١) أمير أورون، إسرائيل ومواجهة تحديات غزة وإيران، إسرائيل اليوم، ١٣/ ٢/ ٢٠٠٩.

الفصل الخامس

الاستخدام الأمثل للقوى المتاحة

هذا العنصر هو التطبيق العملي لقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال:٦٠]. وهو يقوم على التوظيف الأمثل للبشر، والجغرافيا، وطبيعة التربة، والسلاح القليل المتوافر.

الاستخدام الأمثل للمقاتلين

سعت المقاومة في حشد طاقاتها البشرية وتعظيم الاستفادة منها: إعدادًا وتوزيعًا وتكتيكًا. كما استفادت أيضًا من الاكتظاظ العمراني داخل القطاع في تفخيخ المنازل، وعمل الكمائن، واستدراج القوات الغازية بصورة أذهلت العدو، وأربكت ضباطه وجنوده، وألقت في قلوبهم الرعب. وننقل هنا ثلاث شهادات مهمة، كلها أوسمة فخر على صدر المقاومة:

المقاتلون الأشباح

تقول وكالة UPI يونايتد برس إنترناشونال في تقرير لها بعد مرور ثمانية عشر يومًا من بدء الحرب: «أفادت القناة الثانية للتليفزيون الإسرائيلي بأن أعدادًا كبيرة من الجنود الإسرائيليين الذين يشاركون في العملية العسكرية البرية في غزة أُصيبوا بحالات هلع، وتم

نقلهم إلى المستشفى. وذكرت أن سيّلا لا يتوقف من الجنود يصلون إلى مستشفى سوروكا، القسم القليل منهم مصاب بجروح طفيفة ؛ لكن القسم الأكبر مصابون بحالات هلع.

من جهة ثانية نقل موقع يديعوت أحرونوت الإلكتروني في تقرير نشره الثلاثاء عن قائد سرية تابعة لكتيبة في سلاح المدرعات، قوله إن القتال يتميز بأنك تكاد لا ترى العدو بالعين، فكل شيء يجري تحت الأرض، وببساطة فإن المخربين يقفزون من باطن الأرض، وكأن هناك مدينة سفلية. في كل مرة نستولي فيها على بيت تقوم قوة من الدبابات وسلاح الهندسة بالتحرك في المقدمة للتأكد من أن البيت ليس مفخخًا، وفي إحدى المرات اقتربنا من بيت واكتشفنا ٤٠ عبوة غاز، وفي مبنى آخر اكتشفنا نفقًا تحته بهدف خطف جنود.

وأشارت يديعوت أحرونوت إلى أن الخوف من المواجهة الأولى والتحرك بحذر بين كمائن حماس وإنقاذ الجرحى تحت إطلاق النار هو جزء مما يمر به الجنود الذين يشاركون لأول مرة في قتال حقيقي.

وفي سياق متصل قالت وسائل إعلام إسرائيلية إن مسئولين في جهاز الأمن الإسرائيلي عبروا عن خيبة أملهم إزاء العدد القليل من نشطاء الفصائل الفلسطينية الذين تم اعتقالهم خلال العملية العسكرية البرية في القطاع. فمن بين ٢٠٠ فلسطيني اعتقلتهم القوات الإسرائيلية في القطاع هناك ٣٠ وصفهم الشاباك بأنهم ينتمون لحركات سياسية فلسطينية في القطاع وخصوصًا لحماس[1].

سلاح حماس الذي لا تستطيع إسرائيل التغلب عليه

يتحدث مات سانشيز مراسل قناة فوكس نيوز الإخبارية الأمريكية عن المقاتل الفلسطيني، فيقول: «الجنود الإسرائيليون مجهزون ببعض الأسلحة الشخصية الأكثر تطورًا المتوافرة للعسكرية الحديثة ؛ لكنهم مع ذلك يواجهون خطرًا كبيرًا على الأرض في غزة.

حماس هم سادة الحرب غير المتكافئة. لديهم أسلحة رئيسية عديدة، يمكن أن تُلحق خسائر فادحة بالقوة الغازية. هذه الأسلحة لم تكن مصدر قلق كبير لإسرائيل عندما كانت تهاجم من البحر والجو ؛ ولكن الخطر قد زاد بدرجة كبيرة منذ شنت إسرائيل هجومها البري.

---

(١) موقع قناة الجزيرة للأخبار، الجنود الإسرائيليون يتدفقون للمستشفيات بحالات هلع، ١٤/ ١/ ٢٠٠٩.

الخطر الأكبر الذي يواجه الجندي الإسرائيلي في غزة هو العدو الذي يتوق للتخلي عن حياته. بنت حماس قوة من الانتحاريين على استعداد لتفجير أنفسهم. بينما يُعد الجنود الإسرائيليون بحيث يكونون على استعداد للموت من أجل بلدهم، فإنهم أيضًا يتدَرَّبون على البقاء أحياء ؛ ولكنّ مقاتلي المقاومة الفلسطينيين يعتبرون سلاحًا موجهًا نحو هدف واحد في المعركة، ولا يقاتل الفلسطيني من أجل أن يبقى حيًّا.

في الوقت الذي تندفع فيه إسرائيل على أرض غزة، فإنها لا تعرف بالضبط نوعية وكم الأسلحة التي تمتلكها حماس. «نحن لا نعرف ما الذي تم تهريبه إلى غزة» هكذا قال ديفيد شينكر، وهو زميل بارز في معهد واشنطن، ومسئول سابق في البنتاجون، ومتخصص في قضايا الشرق الأوسط.

تتدفق الأسلحة إلى لبنان بسهولة أكبر مما يمكن في قطاع غزة حيث الحدود تحت مراقبة أكثر صرامة. ولكن شبكة الأنفاق المستخدمة في التهريب جعلت المحللين العسكريين يتساءلون عن نوعية الأسلحة التي بحوزة النشطاء الفلسطينيين.

حماس تفتقر إلى أنظمة قتال جوية وبحرية ومدرعة، ولذلك فإن لديها أملًا ضئيلًا بنجاح تحدي القوات الإسرائيلية في ساحة قتال مفتوحة ؛ ولكن الجيش الحديث تتناقص مزاياه بسرعة في المواجهات في المناطق السكنية[1].

جيش حماس

يحدث عميت كوهين عن قدرات حماس العسكرية فقبول عندما تدخل القوات البرية للجيش الإسرائيلي إلى قطاع غزة، فإنها ستجد أمامها منظمة عسكرية مسلحة وجاهزة للمواجهة. أصبح الذراع العسكري لحماس جسمًا عسكريًّا مرتبًا، خزّن السلاح، وزرع العبوات، ودرّب المقاتلين الذين ينتظرون المعركة مع الجيش الإسرائيلي. ومن أجل الوصول إلى مستوى عملياتي جيد، أقامت حماس أكاديمية عسكرية وقواعد تدريب في كل أرجاء القطاع. وبزعم مصادر فلسطينية، فإن «حماس» بعثت بجزء من رجالها إلى دورات تدريب في إيران.

---

(١) مات شانسيز، سلاح حماس القاتل الذي لا تستطيع إسرائيل التغلب عليه، موقع قناة فوكس نيوز الأمريكية، ٦/١/٢٠٠٩.

ضابط كبير في الجيش الإسرائيلي روى قبل بضعة أشهر بأن أحدًا لا يستخف بقدرات حماس. وقال الضابط: في السنة الأخيرة تُعنى حماس بزرع العبوات على طول القطاع، بعضها في حفر عميقة ما أن تمر عليها دبابة حتى تنفجر، كما توجد حفر لاختباء المقاومين. نحن نتوقع شبكة قناصين مدربة مع معدات نوعية[1].

تعظيم الاستفادة من الموقع وطبيعته العمرانية

استفادت حماس من موقع قطاع غزة وتماس حدوده مع العدو في الحصول على المعلومات الاستخبارية، يقول الخبير الإستراتيجي صموئيل بار: «يسمح قرب الحركة من حدود إسرائيل في جمع معلومات استخبارية تكتيكية وإستراتيجية رفيعة المستوى»[2].

كما استفادت حماس أيضًا من طبيعة العمران في غزة بما جعل إسرائيل القوة الأعظم في المنطقة تتحسب الخطى للدخول في المعركة البرية، يقول عاموس هرئيل: « كيف ترد حماس؟ لديها قاطع تحصينات بنته بمنهاجية على مسافة ثلاثة كيلومترات من الحدود ؛ ولكن يبدو أنها في السياق ستفضل حشد رجالها في المنطقة المبنية»[3].

ويؤكد هذا الأمر عوفر شيلح، فيقول: «التكتيك الدفاعي لحماس يقوم على أساس المزايا التي تمنحها هذه المنطقة لها، وإلى القدرة على إخفاء العبوات والشراك التي أعدت مسبقا فيها. ومع أن المعلومات الاستخبارية للجيش الإسرائيلي في غزة أفضل بلا قياس مما كانت في لبنان، فليس كل شيء ممكن المعرفة والتوقع»[4].

الاستفادة من الطبيعة الجغرافية ونوعية التربة

سلاح الأنفاق

استغلت المقاومة الطبيعة الجغرافية للقطاع في بناء شبكة واسعة من الأنفاق لتحقيق أهداف متعددة منها: كسر الحصار المضروب، وكسر منع السلاح والغذاء، ولتخزين

(١) عميت كوهين، العائق البري، معاريف، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨.
(٢) صموئيل بار، التجربة الإسرائيلية في ردع المنظمات الإرهابية، مصدر سابق، لبنان أبريل ٢٠٠٧، ص ١٣.
(٣) عاموس هرئيل، الهدف كسر روح حماس، هاآرتس، ٤/ ١/ ٢٠٠٩.
(٤) عوفر شيلح، لغز الهدف، معاريف، ٦/ ١/ ٢٠٠٩.

الأدوات القتالية، وتأمين منصات إطلاق الصورايخ، وتوفير حرية الحركة للمقاتلين بعيدًا عن وسائل تجسس العدو. أنفاق للقيادة، وأنفاق للقتال، وأنفاق كشراك خداعية.

بناء غير مرئي

«هناك بناء في غزة، هو ليس مرئيًا إلا أنه في حالة نهوض. نحن نعرف ذلك من الطلب الهائل على الإسمنت؛ لأن أحدًا لا يرى أين يذهب كل هذا الإسمنت فوق سطح الأرض؟ هناك استنتاج واحد: من لا يبني بصورة عمودية يبني في باطن الأرض.

هذا ما يحدث الآن في القطاع. منظومة هائلة من المخابئ الحصينة والسراديب الأرضية وعلى وجه الخصوص شبكة لا تنتهي من الأنفاق والقنوات القتالية. ويبدو أن «حماس» قد حققت من الآن إنجازًا واحدًا من خلال الأنفاق: الأنفاق زادت من قوتها الردعية في وجه إسرائيل.

الأرض في القطاع رملية جدًّا، الأمر الذي يُسهل مهمة الحافرين بدرجة كبيرة. بإمكانهم أن يتقدموا في عمق الأرض، حتى بواسطة وسائل وأدوات بدائية، أو باليدين.

الأنفاق داخل المدينة تهدف إلى تمكين عناصر حماس من التحرك من شارع إلى شارع تحت الأرض لمباغتة القوات الإسرائيلية في كل مرة من موقع آخر. القنوات والخنادق القتالية ترتبط مع مراكز سيطرة وقيادة تحت الأرض ومخابئ السلاح.

في المقابل تُبنى خارج مراكز المدن أنفاق ترتبط بحفر هائلة في الأرض تحت المداخل الرئيسية للقطاع حتى تقوم حماس بتعبئتها بالمواد الناسفة من أجل تفجيرها عند مرور أرتال المراكب العسكرية الإسرائيلية. البناء تحت الأرض يتضمن وفقًا للتقديرات مئات قاذفات القسام والكاتيوشا المحصنة من القصف الإسرائيلي الجوي. المبدأ الأهم في هذا المشروع هو أن البناء تحت الأرض يتم في موازاة تحويل المباني للأغراض القتالية فوق الأرض.

حماس تعتمد على قيام مقاتليها بإلحاق خسائر كثيرة في صفوف الجيش الإسرائيلي بفضل القتال من الأنفاق، الأمر الذي يشكل ضغطًا على المستوى السياسي الإسرائيلي لسحب قواته لأن القتال سيبدو عديم الفائدة حينئذ.

تجربة الجيوش الأجنبية تشير إلى أن الأمريكيين أقاموا في فيتنام وحدة جرذان الأنفاق،

التي حاولت ضرب الأنفاق التي اُكتشفت من خلال إدخال سائل متفجر أو استخدام قاذفات اللهب. نجاحهم كان محدودًا.

البروفيسور إسحاق بن يسرائيل الذي كان رئيسًا لإدارة تطوير الوسائل القتالية والبُنى التحتية في وزارة الدفاع يؤكد أن الجيش لا يمتلك اليوم وسيلة ناجعة لحل قضية الأنفاق»[1].

صعوبة التصدي للأنفاق

«من تحقيقات حملة رصاص مصهور يتبين بأن القوات وجدت صعوبة في التصدي للأنفاق التي ربطت بين المنازل والشوارع وساعدت المقاومين على الهروب من المنطقة. ضابط كبير في لواء المظليين قال: «كانت هناك أحداث أطلقت خلية فيها الصواريخ علينا واختفت، وفجأة رأيناها تخرج في شارع آخر. ينبغي الاستعداد لذلك في التدريبات. حزب الله أيضًا يتعلم ويستخلص الدروس من القتال بين الجيش الإسرائيلي وحماس في غزة»[2].

تعظيم الاستفادة من الصواريخ الفلسطينية

تُعد الصورايخ الفلسطينية هي السلاح الردعي الأهم لدى المقاومة، والتي استخدمتها بكفاءة رغم ظروف الحرب البرية، ووصلت بها إلى أهداف إستراتيجية لم تتعرض للقصف طيلة الصراع العربي الإسرائيلي، يعترف بذلك عوزي روبين عالم الصواريخ والمشرف على منظومة حيتس، فيقول: «الهجوم الصاروخي الذي شنته حماس والمنظمات الفلسطينية الأخرى خلال عملية الرصاص المصهور خرج عن الإطار والمعدّل الذي استمر لسنوات طويلة. وعلى الرغم من أن القوة النيرانية ومدى الإصابة كانت متدنية وأقل أهمية من الهجوم الصاروخي لحزب الله إبان حرب لبنان الثانية فإنّ الأهداف الإستراتيجية كانت متماثلة:

- **الأول**: إظهار استمرار وجود القدرة العسكرية للفلسطينيين أمام القوة الإسرائيلية.

---

(١) عمير ربابورت، لا يدخلون إلى غزة بل يسقطون فيها، معاريف، ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠٨.
(٢) أمير بوحبوط، نفق الجيش الإسرائيلي، معاريف، ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٩.

• **الثاني**: إنجاز صوري أمام الجمهور الفلسطيني ودول العالم عن طريق ضرب المدن الرئيسية في عمق إسرائيل، والتي اُعتبرت حتى ذلك الحين جبهة داخلية مأمونة.

• **الثالث**: تآكل في قدرة صمود السكان في إسرائيل، وخلق ضغط على صناع القرار بوقف الحرب في ظروف أكثر ملائمة وراحة بالنسبة للجانب الفلسطيني.

• **الرابع**: ومن المحتمل: مهاجمة القواعد الجوية بهدف المساس بقوة السلاح الجوي الإسرائيلي.

المعلم الرئيسي للهجوم الصاروخي خلال عملية الرصاص المصهور تمثل في استخدام صواريخ جراد المحسنة لأول مرة، والتي يصل مداها على ما يبدو إلى حوالي ٤٠ كيلومترًا، والتي أدخلت إلى دائرة التهديد مدنًا رئيسية ومستوطنات كبيرة في أرجاء الجنوب والوسط.

المناطق التي ضربتها الصواريخ شملت هذه المرة بُنى تحتية وطنية رئيسية مثل: الميناء، ومصافي النفط، ومحطة توليد الطاقة الكهربائية في أشدود، وكذلك مناطق صناعية في أشدود وبئر السبع وكريات جات واشتملت على صناعات كيماوية ومصانع تكنولوجيا عالية.

في حرب ٢٠٠٦، وكذلك في الحرب الأخيرة ٢٠٠٩، كانت مرافق البنية التحتية والصناعية مكشوفة بدون حماية في وجه صواريخ حزب الله وحركة حماس: الموانئ في حيفا وأشدود ومصانع الإلكترونيات ذات الكفاءة التكنولوجية الراقية في بئر السبع وعسقلان وأشدود. حقيقة أنها لم تُصب تقريبًا خلال الحربين كانت محض صدفة.

في اليوم الأخير من الرصاص المصهور، شبّ داخل مصنع البتروكيماويات في أسدود حريق أدى إلى إخلاء السكان خوفًا من تسرب مواد خطرة. كل ما عُرف أن هذا الحريق لم يشُب بفعل إصابة صاروخ؛ لكن هذا الأمر يُدلل على ما كان سيحدث لو أنّ المنظمات الإرهابية وجهت الصواريخ إلى المصانع التي تحتوي على مواد خطرة، كارثة جماعية كانت ستحدث وتؤثر دون شك على سير ونتائج الحرب في غير صالح إسرائيل»[1].

---

(١) عوزي روبين، الدفاع الفعال ضد القذائف الصاروخية دروس عملية الرصاص المصهور وحرب لبنان الثانية، مركز بيجين السادات للدراسات الإستراتيجية، ١٩/ ٢/ ٢٠٠٩، ترجمة مركز دراسات وتحليل المعلومات الصحفية، نقلًا عن موقع مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات.

الفصل السادس

إدارة حماس للحرب: شبهات وردود

أثار البعض شبهات حول إدارة حماس لصراعها مع العدو، وخصوصًا فيما يتعلق بحرب غزة. من بينها أن «حماس» هي سبب معاناة الشعب الفلسطيني، وأنها بخرقها للتهدئة دفعت إسرائيل إلى شن الحرب على غزة، وأن قيادتها اختفت في الأنفاق تاركة الشعب الأعزل يواجه مصيره أمام آلة الحرب الصهيونية، وأن مقاتليها اختفوا بين المدنيين واتخذوهم دروعًا بشرية، وأن كتائبها جبنت عن مواجهة العدو، أو كان قتالها بلا فاعلية بدليل عدم التناسب الشديد بين خسائر القطاع وبين خسائر العدو الصهيوني، وأن صواريخها التي كانت تفاخر بها وبقعة الزيت التي توعدت بها العدو كانت من قبيل العبث والوهم ... إلى غير ذلك من الشبهات والتخرصات.

بعض هذه الشبهات رددنا عليه من قبل من خلال صحافة العدو ومن خلال التقارير الدولية، وسنرد على البعض الآخر منها فى الأبواب التالية عند الحديث عن «من المنتصر في هذه الحرب»، وعند الحديث أيضًا عن تأثير حرب غزة على مستقبل الكيان الصهيوني. ولكننا في هذا الفصل سنرد على بعض الشبهات الهامة المتعلقة بمواجهة حماس للعدوان الصهيوني على غزة:

فلقد ادعى البعض أن «حماس» استخدمت المدنيين في غزة كدروع بشرية. وهذا محض افتراء. ولكنها استخدمت تكتيك «المقاومون الأشباح»، فصبت إسرائيل جام غضبها

على السكان والبيوت في محاولة يائسة لتركيع المقاومة والقضاء عليها. وهنا لا بد أن نُذكّر بحقيقة الصراع مع العدو. فالشعب الفلسطيني بكافة مدنه وقراه في حالة حرب دائمة مع العدو أو طبقًا للفكر الإستراتيجي الإسرائيلي «كل الشعب جيش، وكل البلاد جبهة»[1]. هذه السياسة تبناها بن جوريون منذ نشأة إسرائيل، وبنى عليها سياسته العسكرية، والتي مازالت تُعد دستورًا تعمل به إسرائيل حتى اليوم.

نعم قد يقول قائل: هذا في الجانب الإسرائيلي، أي أن كل إسرائيلي هو جندي في الجيش الإسرائيلي، والداخل الإسرائيلي كل إمكانياته مسخرة للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية ؛ ولكنه أيضًا سلوك إسرائيلي معتاد في حروبها المختلفة، إذ تعتبر إسرائيل كل بيت فلسطيني هدفًا عسكريًّا، وكل إنسان فلسطيني حتى لو كان رضيعا فهو هدف للقتل، ففي نظرهم «العربي الجيد هو العربي الميت»[2]، تقول عميرة هاس: «جئنا لإبادتكم، الموت للعرب، كاهانا كان على حق، لا تسامح، العربي الرجل هو العربي في القبر. هذه مجموعة مختارة من الكتابات التي كتبها جنود إسرائيليون على جدران منازل الفلسطينيين في غزة خلال عملية الرصاص المصهور. الجنود شعروا أن قادتهم قد أطلقوا يدهم في الهجوم على السكان المدنيين. ما كتبوه يعبر عما فهموه كروح للمهمة التي أُرسلوا لتنفيذها»[3].

هذا المنطق البن جوريوني يجب أن يحكمنا نحن العرب أيضًا في صراعنا مع العدو، فالمقاومة لا تدافع عن نفسها، بل تدافع عن شعب بأكمله. شعب حقوقه السليبة على مرمى حجر منه. فلا بد أن تُجنّد كل قواه، وأن تُوظّف كل إمكانياته لنيل حقوقه المشروعة.

المقاومة لم تهرب من المواجهة

لم تهرب فصائل المقاومة من المواجهة ؛ ولكنها استخدمت سلاح الأنفاق بكفاءة لضمان حرية العمل والحركة، وفي الوقت ذاته لتوفير الحماية لها ضد استهداف الطائرات الإسرائيلية المختلفة التي تجوب سماء القطاع على مدار الساعة، يقول أليكس فيشمان: «هناك خمسون كيلومترًا من الأنفاق في غزة تكفل لهم الحماية من الغارات والعمليات العسكرية»[4].

---

(١) موقع قيادة الجبهة الداخلية، وهي هيئة إسرائيلية للدفاع المدني، ورابط العبارة -www.oref.org.il/82_ar/PA KAR.aspx

(٢) يهودا ليطاني، تسودها النزاعات إلى الأبد، يديعوت، ١٦/ ٣/ ٢٠٠٨.

(٣) عميرة هاس، العنوان على الجدار، هاآرتس، ١٧/ ٣/ ٢٠٠٩.

(٤) أليكس فيشمان، هل أصيب الإسرائيليون بعاهة، يديعوت، ٩/ ١٢/ ٢٠٠٨.

وينقل رون بن يشاي صورة حية ليوم مع لواء النخبة جفعاتي، فيقول: «يسود مدينة غزة الهدوء معظم اليوم ؛ ولكنه الهدوء الذي يثير اهتمام قائد لواء جفعاتي. قال لضباطه: كل فرد لا بد أن يُجري تدريب إحباط محاولات الاختطاف، وهو كل ما تهدف إليه حماس في الوقت الراهن، ولا بد أن نراجع إجراءات إحباط العمليات الانتحارية.

التحذير ليس فارغًا. بحلول الليل، تتلقى قوات جيش الدفاع علامات تحذير من محاولات حماس لاختطاف جنود في المنطقة التي نشر فيها لواء جفعاتي قواته.

عندما نتولى السيطرة على منطقة، فإن قوة حماس تختفي ؛ ولكني على يقين أنهم مازالوا هنا: تحت الأرض أو في الخفاء، وسوف يخرجون لمحاولة خطف جنود.

لقد تمكن اللواء من اختراق دفاعات حركة حماس في غضون ساعات، واستولى على محور مفخخ ومحصن بلا مقاومة تقريبًا. شاغله الرئيسي ألا يكون المشهد كمينًا للمقاومة»[1].

القتال كان من بيت لبيت

في تقرير لموشي يهوشع عن شهادات لضباط إسرائيليين جاء فيه: « ضابط كبير في الجيش الإسرائيلي في حديث من قطاع غزة عبر هاتف مشفر يقول: نحن نقاتل من بيت إلى بيت. ومن وصف الضابط ـ الذي يقود إحدى وحدات الجيش الإسرائيلي ـ يمكن أن نفهم شيئًا عما يحصل في ضواحي مدينة غزة وعن أربعة أيام من القتال الشديد وجهًا لوجه داخل الأراضي الفلسطينية المكتظة.

خمسة ألوية من الجيش الإسرائيلي تعمل في قطاع غزة ليل نهار دون توقف. ليس الكثير معروفًا عما يحصل على الأرض: القتال الشديد العبثي يجري بعيدًا عن الكاميرات.

نحن نتقدم ببطء وبحذر. البيوت مكتظة جدًّا. وجدنا الكثير جدًّا من وسائل القتال. البيوت مفخخة. ويوجد أيضًا دراجات جاهزة لعملية خطف. كل لحظة يوجد صدام. كل ساعتين تقريبًا توجد محاولة من استشهاديين يركضون نحونا ليتفجروا بحزام ناسف. في البيوت المفخخة التي عثرنا عليها وجدنا أيضًا فتحات لأنفاق معدة لاختطاف جندي. حماس تحاول جر الجيش الإسرائيلي إلى المناطق المبنية أكثر»[2].

---

(١) رون بن يشاي، يوم مع قواتنا في غزة، يديعوت، ٩/ ١/ ٢٠٠٩.

(٢) يوسي يهوشع، ضابط كبير عن المعارك الضروس في القطاع: «نحن نتقدم بحذر بين البيوت المفخخة. استشهاديون يركضون إلينا مع أحزمة ناسفة»، يديعوت، ٧/ ١/ ٢٠٠٩.

وفي تقرير آخر لهاآرتس جاء فيه: «خمسة أيام في القسم البري من الحملة، يتبين أن «حماس» لم تُهزم. رجالها ـ الذين اختفى معظمهم من الميدان مع دخول جنود الجيش إلى القطاع بدءوا يخرجون من أماكن اختبائهم، ويلاحقون القوات. المكوث في المنطقة ـ دون تقدم حقيقي منذ يومين على الأقل ـ يحقق أهدافًا للعدو. يبدو أن رفض حماس المساومة يستند ضمن أمور أخرى إلى الافتراض بأنها إذا نجحت في سفك دماء الجيش الإسرائيلي على مدى أيام ـ في سلسلة أحداث متواصلة ـ سيفقد الرأي العام الإسرائيلي صبره، والحكومة ستضطر إلى أمر الجيش بالانسحاب دون تسوية»[1].

قيادة العدو في نفق تحت الأرض

هناك من عاب على قيادة المقاومة اختباءها واحتماءها بالأنفاق. وللرد على هؤلاء نقول أنه كان لابد للقيادة أن تدير المعركة من مكان آمن. وهي لم تكن تحت الأرض تمامًا بدليل أنها قدمت الكثير من قادتها شهداء سواء على المستوى الأعلى أو الوسيط. وحسبنا للدلالة على ذلك استشهاد القائد نزار ريان، والقائد سعيد صيام.

كما أن قيادة العدو كانت في نفق مماثل لأنفاق رفح رغم أنها بعيدة تمامًا عن مرمى المقاومة، يقول بن كاسبيت: «قبل دقائق من هجوم سلاح الجو الأول، أعلن أشكنازي انتقاله إلى ساعة قتال. بدّل مقر القيادة العامة للجيش الإسرائيلي، ونزل إلى وكر القيادة. يوجد بين وكر مقر القيادة العامة ووكر سلاح الجو ممر تحت الأرض. هذه هي صيغة الجيش الإسرائيلي عن أنفاق رفح»[2].

تواجد المقاومة بالقرب من المناطق المدنية

يدعي البعض أن المقاومة عرضت المدنيين لويلات الحرب لتواجدها في أماكن قريبة من التجمعات العمرانية في مدن قطاع غزة، مما يعد مخالفة لقوانين الحرب، وسببًا في تعريض المدنيين لخسائر بشرية ومادية. وللرد على هذه الشبهة نذكر بأن «المنطقة الغزية تختلف عن لبنان: فهي ليست جبلية وحرشية، وعليه فإن «حماس» ملزمة بأن تدخل المنطقة المبنية وألا تكون في السهل، حيث يسهل تشخيص رجالها وضربهم»[3].

---

(١) عاموس هرئيل وآفي يسسخروف، الجيش الإسرائيلي يفقد الصبر، هاآرتس، ٧/ ١/ ٢٠٠٩.
(٢) بن كاسبيت، غزة ليست لبنان وحرب عسكرية كفيلة بإضعاف حماس، معاريف، ٢/ ١/ ٢٠٠٩.
(٣) عوفر شيلح، لغز الهدف، معاريف، ٦/ ١/ ٢٠٠٩.

وتنفي منظمة العفو الدولية أن يكون في ذلك التواجد أي انتهاك لقوانين الحرب أو استخدام للمدنيين كدروع بشرية، فتقول: «وبينما لا تشكل تواجد مقاتلي حماس مقاتلين ومجموعة متنوعة من الأسلحة داخل المدن والقرى دليلًا بحد ذاته على استخدام الدروع البشرية، فإنها لا ترقى إلى مستوى الانتهاك لواجب اتخاذ الاحتياطات الضرورية لحماية المدنيين الخاضعين لسيطرتها من أخطار العمليات العسكرية «إلى الحد الأقصى الممكن»، وعلى وجه الخصوص «بتجنب وضع الوسائل والقوات العسكرية داخل مناطق مكتظة بالسكان أو في محيطها»»[1].

كما أنه «ليست مسألة القرب الشديد للقوات العسكرية والأسلحة من المناطق المدنية بالأمر غير العادي في إسرائيل. فمقر قيادة الجيش الإسرائيلي يقع في وسط منطقة مكتظة بالسكان في وسط تل أبيب. بينما تنتشر القواعد والمنشآت العسكرية ـ في عسقلان وسديروت وبئر السبع وغيرها من مدن جنوب إسرائيل، وكذلك في مناطق أخرى من البلاد ـ داخل المناطق السكنية وحولها. وأثناء عملية الرصاص المصهور، كانت هناك مواقع وأنشطة عسكرية إسرائيلية أكثر من المعتاد بالقرب من المناطق المدنية في جنوب إسرائيل، وشنت القوات الإسرائيلية هجمات على غزة انطلاقًا من هذه المناطق على طول محيط قطاع غزة»[2].

استخدام المدنيين كدروع بشرية

تدعي إسرائيل أن المقاومة استخدمت المدنيين الفلسطينيين العزل كدروع بشرية. وأنها استخدمت أيضًا الأعيان المدنية كالمدارس والمساجد والمستشفيات وسائل لتخزين السلاح أو الاختفاء أو لقصف العدو. واتخذت ذلك سبيلًا لمهاجمة المدنيين والأعيان المدنية.

ولقد ردت تقارير دولية متعددة على هذه الشبهة، ولكننا هنا نكتفي بما أوردته بعثة جولدستون التي قالت في تقريرها: «على الرغم من أن الأحداث التي حققت فيها البعثة لم تثبت استخدام المساجد لأغراض عسكرية أو كدروع لحماية أنشطة عسكرية، فإنها لا تستطيع استبعاد احتمال أن يكون ذلك قد حدث في حالات أخرى. ولم تعثر البعثة على

(١) منظمة العفو الدولية، عملية الرصاص المصهور: ٢٢ يومًا من الموت والدمار، يوليو، ٢٠٠٩، ص ٨٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٨٦، ٨٧.

أي أدلة تدعم الادعاءات القائلة بأن سلطات غزة أو الجماعات المسلحة الفلسطينية قد استخدمت مرافق المستشفيات كدروع لحماية أنشطة عسكرية أو أن سيارات الإسعاف قد استُخدمت لنقل مقاتلين أو لأغراض عسكرية أخرى. وبالاستناد إلى التحقيقات، تستبعد البعثة أن تكون الجماعات المسلحة الفلسطينية قد باشرت أنشطة قتالية من منشآت الأمم المتحدة التي اُستخدمت كملاجئ أثناء العمليات العسكرية»[1].

وقال تقرير لهيومان رايتس ووتش: «كثيرًا ما لامت الحكومة الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي «حماس» على استخدام المدنيين كدروع بشرية وعلى القتال من داخل أعيان مدنية. وفي الحالات التي تم توثيقها في هذا التقرير، لم تعثر هيومان رايتس ووتش على أدلة على أن «حماس» استخدمت دروعًا بشرية في المناطق القريبة من مواقع الهجمات وقت وقوعها»[2].

ولم يثبت ـ كما قالت العفو الدولية ـ «أن مقاتلي حماس قد وجهوا حركة المدنيين لحماية الأهداف العسكرية من الهجمات. كما لم نجد دليلًا على أن حركة حماس قد أرغمت السكان على البقاء في المباني التي استخدمها مقاتلوها أو حولها، ولا على منع المقاتلين للسكان من مغادرة المباني أو المناطق التي كان يستخدمها المقاتلون»[3].

لقد كان استهداف المدنيين الفلسطينيين عملًا متعمدًا بكل المقاييس، تقول العفو الدولية: «إن الهجمات التي تسببت في سقوط العدد الأكبر من القتلى والجرحى تمت باستخدام ذخائر بعيدة المدى وبالغة الدقة، وغالبًا ما كانت موجهة ضد أهداف مختارة مسبقًا، وهي عملية عادةً ما تتطلب موافقة التسلسل القيادي.

إن ضحايا تلك الهجمات لم يعلقوا في مناطق تبادل إطلاق النار، كما لم يكونوا يشكلون درعًا بشريًّا للمقاتلين. وقُتل العديد منهم عندما قُصفت منازلهم بينما كانوا نيامًا، بينما كان آخرون يمارسون حياتهم اليومية المعتادة في منازلهم. وكان الأطفال يدرسون أو يلعبون في غرف نومهم أو على الأسطح أو خارج منازلهم عندما ضربتهم الصواريخ أو قذائف الدبابات، بينما كان آخرون في الشارع سيرًا على الأقدام أو على دراجاتهم الهوائية»[4].

---

(١) تقرير جولدستون، مصدر سابق، ص ٨

(٢) مارك جارلاسكو وآخرون، أمطار النار، منظمة هيومان رايتس ووتش، مصدر سابق، ص ٤، ٥.

(٣) العفو الدولية، عملية الرصاص المصهور: ٢٢ يومًا من الموت والدمار، مصدر سابق، ص ١٠.

(٤) المصدر السابق، ١٤.

ندرة الخسائر الإسرائيلية

يقول البعض إن المقاومة كانت كالنملة التي يواجه فيلًا، وأن أسلحتها بدت كلُعب أطفال. وكانت النتيجة أن عرضت نفسها والشعب الفلسطيني لضرر غير مبرر، وغير متوازن مع خسائر العدو. وللرد على هذه الشبهة نكتفي بما يلي:

إسرائيل والتعتيم الإعلامي

حاولت إسرائيل حجب الحقيقة. وفرضت حصارًا إعلاميًا على مجريات الحرب وذلك لتحقيق هدفين رئيسيين، هما: حجب الخسائر البشرية الإسرائيلية خصوصًا في صفوف الجنود، وحجب حقيقة جرائم الحرب المرتكبة في قطاع غزة، تقول العفو الدولية: «أثناء عملية الرصاص المصهور ـ وقبل عدة أسابيع من بدء العملية ـ رفض الجيش الإسرائيلي السماح بدخول المراقبين المستقلين والصحفيين ومراقبي حقوق الإنسان والعاملين في مجال المساعدات الإنسانية دخول غزة، الأمر الذي أدى فعليًا إلى قطع غزة عن العالم الخارجي، وبالتالي منع المراقبة المستقلة لسلوك القوات الإسرائيلية هناك ونقل الأخبار المتعلقة بها. وحتى بعد إعلان وقف إطلاق النار في ١٨ يناير (كانون الثاني) استمر الجيش الإسرائيلي في منع العديد من العاملين في مجال حقوق الإنسان والمساعدات الإنسانية والصحفيين من دخول غزة. وظل بعضهم ممنوعًا من دخولها بعد مرور أربعة أشهر»[1].

إسرائيل تخفي خسائرها

حاولت إسرائيل إخفاء خسائرها في الحرب، والادعاء بأنها في معظمها جاءت عبر نيران صديقة. حتى ولو كان الأمر كذلك، فهذا يدل على تخبط القوات الغازية، وعدم التنسيق بينها. يقول أمير بوحبوط: «حادثة قاسية أمس في غزة: سمحت الرقابة العسكرية بالنشر بأن عددًا من مقاتلي لواء جولاني أصيبوا أمس في أثناء انفجار في منطقة عملوا فيها في حي الشجاعية شمالي القطاع. وتفحص إمكانية أن تكون هذه نار مضادة للدبابات من العدو، أو كبديل إصابة قذيفة مدفعية من الجيش الإسرائيلي على سبيل الخطأ. فقد أصيبت القوة

(١) المصدر السابق، ص ١٠.

بالنار، وفرت نحو مبنى مجاور للبحث عن مأوى. ولكن ما إن وصل المقاتلون إلى المبنى حتى سُمع انفجار شديد في المكان، وانهار البيت عليهم. تُفحص روايتان:

- إمكانية أولى هي أن يكون المخربون هم الذين أطلقوا قذيفة هاون نحو القوة، وبعد ذلك أطلقوا صاروخًا مضادًّا للدبابات نحو المبنى الذي احتموا فيه.
- ولكن رواية أخرى تقول: إن القوة أصيبت بنار الجيش الإسرائيلي.

بعد انهيار المبنى، دار في المكان اشتباك كثيف بين القوة وخلايا مخربين حاولت محاصرة البيت. مروحيات سلاح الجو القتالية بدأت تهاجم أهدافًا حول القوات لمنع المزيد من خلايا المخربين من الوصول إلى مكان الحدث، ولمساعدة القوات على إنقاذ الجرحى. بطاريات المدفعية انضمت إلى النار الردعية، وبدأت تهاجم مناطق مفتوحة في المنطقة.

وأمس سمحت الرقابة ـ في أثناء تبادل النار ـ النشر عن إصابة عدد من المقاتلين، بينهم أيضا قائد اللواء العقيد آفي بيلد.

إنقاذ الجرحى جرى تحت تبادل كثيف للنار. وفي النهاية أُخلي الجرحى. ودخلت أيضًا طواقم إنقاذ ونجدة من قيادة الجبهة الداخلية نحو عمق المنطقة الفلسطينية للمساعدة في تمشيط المبنى خشية أن يكون هناك جنود آخرون علقوا تحت حطام البيت.

من حدود غزة، أُخلي الجرحى من الحدث الصعب إلى المستشفيات في إسرائيل. بعضهم وصل إلى مستشفى سوروكا في بئر السبع، آخرون إلى تل هشومير بمن فيهم دافيد بوغل ابن العميد احتياط تسفي بوغل، رئيس قيادة المنطقة الجنوبية سابقًا. العميد بوغل قال أمس: جُندت قبل أسبوع، وأنا أعمل كقائد لتنسيق النار في قيادة المنطقة الجنوبية في القتال. أنا الذي استخدمت نار المدفعية لإنقاذ الجرحى، ولم أعرف أن ابني كان بينهم أيضًا»[1].

وهذا المقال يدل أيضًا على ضراوة القتال وعنف المقاومة، كما يدل أيضًا على جسامة الخسائر الإسرائيلية التي تجعل الاحتلال في حادثة واحدة يخلي الجرحى إلى المستشفيات في إسرائيل بما فيها مستشفى سوروكا ومستشفى تل هشومير. وطبقًا لموسوعة ويكيبيديا الحرة فمستشفى سوروكا اسمه الرسمي هو «مركز سوروكا الطبي الجامعي»، ويعتبر الرابع في إسرائيل من حيث الحجم. فإذا كانت الإصابات قليلة، فما الداعي إذن لتوجيه المصابين إلى أكثر من مستشفى؟!.

(١) أمير بوحبوط، شرك النار، هآرتس، ٦/ ١/ ٢٠٠٩.